المغايرة الاسلوبية بين رسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية

م.د صفاء حسين لطيف
جامعة كربلاء / كلية العلوم الاسلامية

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين .

لرسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية حضور كبير في عالم الادب العربي لاسيما الادب الاندلسي ، لأنهما صدرتا من أديب مشهور أخذ حيزاً واسعاً في عالم الأدب العربي اذ لا يمكن أن يذكر شعراء الأدب الاندلسي الّا كان ابن زيدون في مقدمته ؛ لأنه ترك لنا تراثاً قيماً تمثل في رسائله الأدبية الرائعة التي تتبع من فكر أديبٍ حصيف عالمٍ بالأدب وفنونه .

ومن أشهر رسائله التي تناقلتها الاخبار وانتشرت في مجالس الادب واروقته رسالتاه الجدية والهزلية اذ احتوتا على كمٍ هائل من الروعة الأدبية والمعارف العلمية التي ضمنها هذا الأديب الرائع فيهما .

وستنصب هذه الدراسة على رصد المغايرة الاسلوبية بين الرسالتين .

منتهجة آليات التحليل الاسلوبي عن طريق توظيف المنهج الاسلوبي في النقد. فالقارئ المدقق لهاتين الرسالتين يجد فرقاً جلياً في توظيف الاساليب واستعمال صيغ مخاطبة الآخر .

ابن زيدون وعصره :

لا ينفك أحد يقرأ تاريخ عصر الطوائف والمرابطين الّا ويضع ابن زيدون على رأس من يقرأ لهم ؛ لأنه يمثل خلاصة النتاج الأدبي للعصر الأموي في البيئة الاندلسية فقد واكب نشأة دولة المرابطين وتنافسها الثقافي ، التي كادت أن تكون جمهوريات شعرية ، الحكام والوزراء والكُتّاب والفقهاء والفلاسفة كلهم شعراء ، فكان الشعر يمثل قمة الهرم التعليمي المتحكم في هذه الدويلات المبني على الشعر ، السياسة ، الفروسية ، الترف .

شخصية ابن زيدون :

((يصفه من ترجموا له بأنه كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة ، فحفظ كثيراً من آثار الأدباء واخبارهم ، وامثال الشعراء وحوادثهم ، ومسائل اللغة . . . وكانت له ثقافة فلسفية))[1] .

ولد بقرطبة عام ٣٥٩هـ ونشأ في كنف والده الذي اهتم كثيراً به وبنشأته[2] ، ويمكن القول : ((ان ابن زيدون مثل قرطبة في شخصيته أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيف الروح ، كثير الدعابة ، ميال الى المجون ، الى جانب طموحه السياسي ؛ لذا فقد نال شهرةً واسعة في مجالس قرطبة الادبية والاجتماعية والسياسية))[3] .

ويأتي ابن بسّام ليكمل لنا اللمسات الفنية المميزة في شخصية ابن زيدون وتركيبها اذ نوّه ايضاً ((بفتى الآداب وعمدة الظرف . . . ذي الابوة النبيهة بقرطبة والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلاطة ، وقوة العارضة والافتتان في المعرفة ، كان من ابناء وجوه الفقهاء بقرطبة))[٤] .

ويمكن القول ان ما ذكر يكفي لتوضيح ميزات ابن زيدون وشخصيته لأن أغلب المصادر التي درست الأدب العربي في الأندلس تطرقت اليه والى حياته بإسهاب ويكفينا ما ذكرنا لصلته بموضوع الدراسة ومساس مباشر بها . وسيكون الولوج الى ما هو اهم من جوانب شخصية ابن زيدون .

ابن زيدون ناثراً :

بعد القراءات المتعددة لابن زيدون والاطلاع على ما زخرت به بطون الكتب التاريخية والادبية عنه وعن أدبه أسفرت جميعها عن انه شخصية موسوعية فذة . فهذا ابن بسّام يؤكد ذلك بقوله : ((فَرَعَ أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كلَّ مطلب . . . اما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالطبع الذي لا يُنكر ولا يُرد ، الذي لا يحصر ولا يعد))[٥] .

حتى انه جلس ذات يوم لاستقبال المعزين ((فما سمع يجيبُ رجلاً منهم بما اجاب به الآخر ، لحضور جنانه ، وسعة ميدانه))[٦] .

وبناءً على ما يعرف من مفهوم الاديب فقد ((كان ابو الوليد صاحب منثور ومنظوم . . . وسع البيان نظماً ونثراً ، الى ادب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبحر تألفه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم اقترانه ، وحظٌ من النثر غريب المباني شعري الالفاظ والمعاني))[٧] .

واذا كان ابن خلدون قد عقد الفصل الرابع والخمسين من مقدمته ((في انه لا تتفق الاجادة في فنيِّ المنظوم والمنثور الا للاقل))[٨] .

فيمكن القول ان ابن زيدون هو من الاقل المستثنى الذي اتفقت له الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً .

ولعل المدقق في كلام ابن بسّام الذي اشار به الى نثر ابن زيدون يجد انه يرقى الى افق الشاعرية الفذة وهذا حكم يمكن التفاخر به امام من حكموا بجودة نظم ابن زيدون على نثره[٩] .

المغايرة الاسلوبية بين الرسالتين :

سعى ابن زيدون في رسالته الجدية الى إظهار جديته وقدرته على حصول مبتغاه واستعطاف ابن جهور فنجده يبتدئ بصفات المستعطف العالية والقديرة مازجاً بينه وبين يدي القدرة المطلقة

بطريقة ادبية عالية ، أما رسالته الهزلية فنجده قد رفدها بعلوم عدة أظهر من خلالها منزلة غريمه القليلة التي لا ترقى الى مصاف النبلاء ، آخذين بالنظر ابتداء المغايرة الاسلوبية بعنواني الرسالتين (الجدية والهزلية) وهذا ما دفعنا الى اختيار هذا العنوان اذ بدأت المغايرة من العنوان فكانت واضحة وجلية للقارئ وسنسعى وعبر الافادة من الإسلوبيات بأنواعها من اسلوبية صوتية[١٠] وتعبيرية[١١] ووظيفية[١٢] ، الى بيان دقة الاسلوب عند ابن زيدون، ودقة توظيف الجمل والاساليب التي تعبر عما يجول في عقله ونفسه فضلاً عن بيان اسلوبه في مراعاة مستويات المتلقين وحالاتهم النفسية التي كانوا عليها .

تبدأ المغايرة الاسلوبية المميزة لابن زيدون من ثيمة العنوان ، فالمغايرة واضحة وجلية للقارئ فابن زيدون جعلنا نقف أمام مهارته الادبية التي ظهرت في المناقضة او المغايرة التامة بين العنوانين لأنه ((بضدها تتبين الاشياء)) ، وبعد البحث والتقصي لم نجد لأغلب الدراسات السابقة اشارة واضحة وجلية حول اسبقية اي الرسالتين كانت الاولى ، سوى اشارة د. جودت الركابي الى احتدام العداوة بين ابن زيدون وابن عبدوس كان من الاسباب التي ادت الى سجن ابن زيدون[١٣] .

وبما ان الرسالة الجدية كانت وليدة هذا السجن الذي اسفرت عنه هذه العداوة ، فيمكن القول ان الرسالة الهزلية هي السابقة والجدية هي اللاحقة ؛ لان سمة الهزلية ، لم تصبح عنوانا للرسالة الاولى الا بعد ميلاد الثانية لوجود التضاد بينهما الملازم للميز .

يبدأ ابن زيدون رسالته الهزلية بمقدمة تكاد تختلف اختلافاً جذرياً عما هو متعارف عليه في كتابة الرسائل فهو لم يبتدئ رسالته بالبسملة والصلاة على النبي وقد يكون ذلك لأسباب هي :

١- معرفة الاديب الحصيف ابن زيدون ان الموضوع الساخر والهازل لا يستحق ان يُسبق بالبسملة .

٢- احتقار ابن زيدون الواضح والجلي لشخصية ابن عبدوس جعله يدخل الى الموضوع مباشرةً .

٣- قد يكون غضب ابن زيدون وانفجاره هو السبب وراء عدم الابتداء بما هو ضروري ومتعارف .

إن القارئ للرسالة الهزلية يجد ابداع ابن زيدون اكثر تألقاً من رسالته الجدية ، ربما نظراً لقوة الدافع ، وحساسية المناسبة ((فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح ، المعبر عن سخط الشاعر وألمه ، من منافسه ، الذي لعب بقلب من احب ، ولعبت هي به))[١٤] ولعل هذا السبب هو ما جعلها على عكس اختها الرسالة الجدية تنماز بطابع السجع في معظم فقراتها .

قد يتفق الجميع بان تقيد ابن زيدون بالسجع في رسالته الهزلية تكلفٌ الّا انني اخالف هذا الاتفاق ، لأننا ندرك جميعاً ان الرسالة الهزلية كانت وليدة مناخ نفسي يتصف بالانفعال القوي . فعلينا ان ننتبه الى العلاقة الملحوظة بين الانفعال الداخلي وبين الايقاع الخارجي ، فقد اثبتت بعض

الدراسات في الايقاع انه : ((من الوقائع المشاهدة ان حركاتنا تصبح متوقعة ، حين نعاني انفعالات قوية ، لان قانون الانتشار العصبي – كما يسميه جوبو – يجعل التأثر الذي ينشأ في المخ الانساني ، ينتقل قليلاً او كثيراً الى الاعضاء ، كما ينتقل الاضطراب على صفحة الماء الذي كان ساكناً ، والى هذا ذهب الشاعر إليوت ، حين دافع عن ضرورة الوزن في الشعر ، باعتباره يختص بالعاطفة اذا كانت حالة زائدة الشدة ، وهو يتناول اقوى العواطف واكثرها حدة واهتزازاً ، والاهتزاز هو السمة الاولى للعاطفة والوزن معاً))[١٥] .

وإن البعد البيولوجي له الاثر الواضح في توتر الاسلوب لان الانسان في حالات الاضطراب والانفعال العنيف تتسارع ضربات قلبه وتكون عمليتا الشهيق والزفير متلازمتين للسرعة وغير مستقرتين وهذا يستلزم ان يكون الكلام بين الاثنين (الشهيق والزفير) قصيراً ومتوافقاً مع ايقاع النفس والنبض في هذه اللحظات .

وبعد ذلك نجد ان ابن زيدون تقمص اسلوب السور المكية ذات الفواصل القصيرة والمركزة المتمكنة في الوقت ذاته لأنها في موقف يستوجب الحدة والتركيز في العبارات وهذا ما اكده ابن زيدون في فقراته القصار المنذرة بالقذائف الكلامية المميزة.

وكما اشار ابن خلدون في تنبيهه الى سجع الكلمات بقوله ((ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات ، لأن وحيه من وحي الشيطان ، وارفع احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة يشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال ، فيهجس في قلبه تلك الحركة))[١٦] .

والكلام السابق اشارة واضحة ليجعلنا نقف وقفة متأهبة امام ظاهرة السجع لأنها تمثلك طاقة تأثيرية قوية في المبدع والمتلقي وتجعلها تحت تأثير الابداع الفني اذ انها تتحكم بالجهاز الحسي لكليهما ، لتستطيع الروح ان ترتقي بمعاريبها دون عوائق المادة والحس .

وكما يقول الجرجاني ((انك لا تجد سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا يبغي به بديلاً ، ولا يجد عنه حولاً))[١٧] .

أما اذا تحولت هذه الوسيلة الى غاية في ذاتها ، واصبحت قواعد اللغة تلوي اعناقها للوفاء بالسجع ، ويعزل في سبيلها الامراء ، وتطلق النساء فذلك هو الضعف والركاكة والتكلف .

ومما يشد الانتباه الى رسالة ابن زيدون الهزلية تبرجه الرائع والجميل بتعزيزه من ايقاع السجع بالجناس الجميل والرائع والمزج المميز بالتموجات الرائعة للموسيقى الداخلية في كثير من فواصله متحدياً بذلك نِدَّه وخصمه ابن عبدوس فنجد جناساته الرائعة مثل :

((كنزت ، ركزت / غاشيتك ، ماشيتك / طاعتك ، جماعتك / مسالمتك ، مناولتك .

وكما في قوله[١٨] :

- وان قارون اصاب بعض ما كنزت ، والنّطِف عَثَرَ على فضل ما ركزت .

- وكسرى حمل غاشيتك ، ويتصدر عن ماشيتك .

كما يشير د.جودت الركابي الى ان ابن زيدون لم يتقيد تقيداً تاماً بالسجع الّا ان هذا الامر لم يجعل خللاً في جمله وعباراته فجمله متشابهة في النغمة متناسقة في الطول[١٩] .

كما تدخل في الموازنة الطباقات والمقابلات التي اثرى بها ابن زيدون رسالته الهزلية اذ قامتا بالدور نفسه الذي قام به كل من السجع والجناس ما دام الجميع وسيلة فنية لم تتحول الى غاية فنجد الطباق في قوله : ((وجودك عدم ، الاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر))[٢٠] .

في طباقات غاية في الهزلْ .

والمقابلة الاكبر والاخطر هي المقابلة القامعة في بنية النص العميقة والتي تظهر في المقابلات التي اوردها ابن زيدون لتصوير ابن عبدوس بصورة النكرة التي لا يمكن ان تذكر بشيء من الايجاب من خلال مقابلته بالشخصيات والاحداث التاريخية التي ذكرها ابن زيدون في رسالته الهزلية .

وعلى سبيل المثال لا الحصر قوله[٢١] :

- ((حتى خلت ان يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت عنه)) .
- ((وان امرأة العزيز راتك فسلبت عنه)) .
- ((وبلقيس غايرت الزباء عليك)) .
- وعروة بن جعفر انما رحل اليك)) .

وان ابتداء ابن زيدون رسالته الهزلية بقوله ((ايها المصاب بعقله . .)) نداء صريح لغريمه وحذف حرف النداء (يا) ، اما (ايّ) فهو منادى نكرة مقصودة والـ(هاء) للتشبيه ، ووقعت كلمة (المصاب بعقله) مباشرةً بعدها ليؤكد ابن زيدون ان الكلام الموجه سيكون مليئاً بالوقفات الكثيرة التي تدل على منزلة المقابل الضئيلة في نظر ابن زيدون فنراه يورد الكلمات المترادفة القوية التي لا تترك للقارئ فرصة ان يميل عنها حتى يكملها ليضع القارئ امام كمٍ هائل من التناقضات الخلقية والخُلقية في غريم ابن زيدون ومنافسه .

ثم يقول[٢٢] :

ولست باول ذي همةٍ دعته لما ليس بالنائلِ

فنراه يورد (لست) بصيغة الماضي اشارة منه الى انك يا (ابن عبدوس) لست الساعي الاول والمبارز الهمام الذي يحث السير ليحصل على ما يريد لكنك حقيقة في صف الكثير ممن سبقوك ولم ينالوا شيئاً .

ثم نجده اورد (حتى) الغائية في قوله : ((وان احتال هرم بن سنان لعلقمة وعامر حتى رضا كان عن اشارتك)) [٢٣] .

وهنا تظهر براعة ابن زيدون في التقليل من حجم منافسه بإظهار المقابلة غير المنطقية بينه وبين هرم بن سنان والتنكيل به وبأحكامه وحكمته غير المتوافرين في شخصيته .

ونجده يورد في اداة الشرط غير الجازمة مثالاً غاية في الروعة والاتقان كما في قوله ((ولولا ان للجوار ذمة ، وللضيافة حرمة ، لكان الجواب في قذال الدّمُستق ، والنعل حاضرة ان عادت العقرب)) [٢٤] .

واسلوب الشرط غير الجازم هذا يوضح لنا مدى عفة نفس ابن زيدون وعلو شأنه فهو على الرغم من ان منافسه يستحق كل ما قال عنه الّا انه يمسك عنه اخيراً لان العفو سمة الكرام لكنه يحذره من العودة لفعلته هذه بإيراده للمثل القائل بان النعل حاضرة ان عادت العقرب[٢٥] .

اما رسالة ابن زيدون الجدية فتظهر فيها جلياً ثقافة ابن زيدون الواسعة التي تنقلنا في احدى واحات مدارس النثر المعروفة وهي مدرسة ابن العميد .

اذ اننا نجد ان ابن زيدون كان متأثراً بطريقة ابن العميد (ت ٣٦٠هـ) ومدرسته التي تعتمد السجع والازدواج منهجاً ، كما تأثر برسالة التربيع والتدوير للجاحظ في رسالته الهزلية ، ويرى الدكتور مصطفى الشكعة ان ابن زيدون في رسائله كان تلميذاً لأستاذ الرسالة الاخوانية عند المشارفة بديع الزمان الهمداني ينهج نهجه ويسجع سجعه يميل نحوه ويلزم طريقه[٢٦] .

وتنماز الرسالة الجدية بقوة العاطفة وعمقها ؛ لأنها تصور تصويراً حقيقياً لحالة ابن زيدون لأنه كان تحت وطأة السجن وينوء بآلامه وشماتة الاعداء به ، وقد كتبها في السجن ووجهها الى الامير ابي الحزم بن جهور .

وبما ان الحالة النفسية التي عاشها ابن زيدون وهو في السجن تحتم عليه ان يكون جاداً في طلبه لاستعطاف ابن جهور للصفح عنه واخلاء سبيله ؛ لذلك جاءت الرسالة الجدية صادقة بعباراتها موجزة بمعانيها واضحة بأسلوبها ، مزج فيها ابن زيدون مهارته الادبية بثقافته الواسعة ؛ ليعطي لنا صورةً لسعة علم أديب بارعٍ له القدرة على تسلق سُلّم الكلمات وترادفها ليصل الى مبتغاه .

ان الأمر اللافت للنظر في الرسالة الجدية هو ابتداء ابن زيدون رسالته بالدعاء لابن جهور بطول العمر والبقاء وفقرات الرسالة كلها تنمَاز بالشدة والقوة من خلال بُنيتها الصوتية المنسجمة من خلال فقراتها المتواصلة والمتسقة . فبعد المقدمة التي تدعو للأمير بالبقاء والديمومة نجد ان ابن زيدون قد اجاد من خلال التوظيف الاسلوبي للفعل الماضي الذي سبقه بالفعل (ابقاك) في بداية الرسالة لإعطاء الديمومة والاستمرارية المتلازمتين في الافعال التالية له .

ثُمَّ ينعطف بنا من خلال انزياح اسلوبي رائع ليُرينا مدى المكانة والمنزلة التي كان عليها قبل السجن ومدى قربه من الامير من خلال قوله :

((إنْ سلبتني – اعزك الله – لباس نعمائك ، وعطلتني من حُلِيّ ايناسك ، وأضمأتني الى برود اسعافك . . . بعد ان نظر الاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الاصم ثنائي عليك))[٢٧] .

وفي هذه الفقرة يذكر ابن زيدون الامير بقربه منه ومنزلته التي كان عليها ، اذ كان محط انظار الحاسدين والشامتين الذين هالهم قرب ابن زيدون من الامير .

ويُظهر لنا ابن زيدون ثراءه اللغوي والثقافي من خلال تظمينه معنى بيت المتنبي المشهور[٢٨] :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صمم

ثم ينتقل بنا ابن زيدون الى صورة جديدة لثير تساؤلاتنا العديدة حول ما يريد من قوله[٢٩] :

((فلا غرو قد يغصُ بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منيه المتمني في امنيته . . .))

وهنا يعرض ابن زيدون الاخطاء التي وقع فيها التي كانت سبباً وراء زجه في السجن .

الّا انه يردفها قائلاً ان كلّ ما جرى عليه وحصل له من ذل وهوان أهون عليه من شماتة الحساد بقوله[٣٠] :

كلُّ المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتةِ الحسادِ

ويستمر ابن زيدون في استعطاف ابن جهور من خلال ايراده لمجموعة من الامثال العربية المشهورة دلالة على ان ما بينهما اقوى من اي قطيعة فنجده يقول ((هذا العتبُ محمودٌ عواقبه . . . وهذه النكبة سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشعُ . . . واثقل السحاب مشياً أحفلها . . . ولكل اجلٍ كتاب . . .))[٣١] .

يتخذ ابن زيدون من الحوار التراثي مدخلاً له ليؤكد قوة العلاقة بينه وبين ابن جهور فالأمثال تحوي كماً هائلاً من المعاني والحكم وقد اوردها ابن زيدون مترادفة لإقناع ابن جهور بان كل ما يتأخر ويبطئ هو خيرٌ له وان الامور تكون بخواتيمها .

ثم ينتقل ابن زيدون الى محاججة جميلة جداً تؤكد خطأه من جهةٍ وسعة صدر ابن جهور الناصح له الذي يريد به خيراً ، فنجد ان ابن زيدون ركن الى الابداع القرآني الرائع مؤكداً موقفه السلبي الذي لا يستمع من خلاله الى نصح الناصحين فيورد القصص القرآني والاحداث التي رواها القرآن الكريم منذ خلق آدم (عليه السلام) وقصته مع ابليس ورفضه للسجود لآدم حين امره الله تعالى ، مع قصة نوح (عليه السلام) وابنه الذي لم يستمع الى نصح والده ، ثم يورد الامثلة المتنوعة التي تحمل في طياتها المعاني السلبية التي مثلت ابن زيدون في كل مواقفه مع ابن جهور فيقول :

((وما اراني الا لو اني اُمِرتُ بالسجودِ لآدم فأبيتُ واستكبرتُ وقال لي نوح (اركب معنا) فقلتُ : (سآوي الى جبلٍ يعصمني من الماء) ، واُمِرتُ ببناء صرحٍ لعلي اطلع الى اله موسى . . .))[٣٢] .

فالبناء الاسلوبي الذي اورده ابن زيدون عن طريق المحاججة المتتابعة المعتمدة على توظيف القصص القرآني مقتصرةً على اسلوب الامر الموجود في هذه القصص والمراد به نصح ابن زيدون ورفضه وتقصيره في فهم هذا النصح هو احتجاج واضح للقارئ وعلى رأسهم ابن جهور الموجه اليه الكلام قاصداً تعريفه بقصوره أمام شخصه الكريم .

وان الذي يبدو واضحاً من ابن زيدون هو انقاذهُ لنفسه من الوضع الذي كان فيه فهدفهُ من هذه البنى الاحتجاجية التقريرية بيان فضل ابن جهور عليه ومنزلته التي كان عليها قبل السجن لذا جاء اسلوبه وحججه الدامغة قوياً لإنقاذ نفسه من سجن ابن جهور وعودة المياه الى مجاريها .

ثم نجد ان البنى الاسلوبية في رسالته الجدية إنمازت بتكرار بعض الاساليب وبقوة الحجة ونصاعة الدليل العقلي والنقلي التي وضعها ابن زيدون بين يدي ابن جهور لكشف زيف الواشين والحاسدين له فيقول : ((فكيف ولا ذنب الا نميمةٌ اهداها كاشحٌ ، ونبأٌ جاء به فاسقٌ ، وهم الهمازون المشاؤون بنميم . . .))[٣٣] .

ثم ينعطف بنا عن طريق القسم ليعطي مساراً مغايراً عما بدأ به فبعد أن اقر من خلال كلامه السابق بأنه لم يسمع النصيحة ولم يلتزمْ لكل ما قيل له نجده ينتقل الى المسار الداخلي للنفس البشرية التي تكون في قرارة كل منا وما تحملهُ من مثلٍ عليا التي ابانها ابن زيدون لأن جهور مؤكداً صدقه معه في كل حركةٍ وقولٍ وفعلٍ تجاهه فيقول: ((والله ما غششتُكَ بعد النصيحة ، ولا انجرفتُ عنك بعد الصاغية ، ولا نصبتُ لكَ بعد التشيع فيك))[٣٤] .

ومن المفارقات الواضحة فيهما ايضاً التفاوت في طول كلٍ منهما فرسالة الجدية طولها نحو ١٢٥سطراً والرسالة الهزلية طولها نحو ١٥٢ سطراً وهذه المفارقة في الطول تعطينا رؤيةً اضافيةً الا ان ابن زيدون زاد في طول الهزلية ليؤكد براعته في رسم النمط الساخر عوضاً عن بيان قدرته في النمط الجاد ، والمفارقة الواضحة من ناحية الاطالة والاطناب فقد كانت الرسالة الجدية اقل اسهاباً واكثر اتزاناً من الرسالة الهزلية لأنه اراد الوصول الى مبتغاه دون تكلف ، أما رسالته الهزلية فقد كانت طويلةً لأنه رسم لها مساراً مغايراً ومختلفاً عن الجدية موضوعاً ومضموناً .

وبعد هذا التحليل الاسلوبي لرسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية يظهر لنا ان المغايرة واضحة وجلية بين الرسالتين ، وتظهر لنا دقة ابن زيدون وقصديته الواضحة في هذه المغايرة فقد كان يهدف في الرسالة الهزلية وعن طريق توظيفه لأساليبها ، الى ترسيخ مدى ضآلة خصمه وصغر شأنه امامه ، وتحذيره من عواقب ما اقدم عليه لنيل ود ولّادة .

اما الرسالة الجدية فكان ابن زيدون واضح المعالم فيها راسماً هدفه لنيل استعطاف ابن جهور واطلاق سراحه من السجن . جاعلاً من اسلوب الدعاء الافتتاحي مدخلاً لنيل استعطافه ولفت نظره لإكمال قراءة رسالته لينال ما يريد .

الخاتمة

بعد القراءة الاسلوبية لرسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية كان لنا بعض النتائج :

١- سعى ابن زيدون في رسالته الهزلية الى بيان قلة شأن ابن عبدوس من خلال توظيفه لاساليب دقيقة ومؤثرة ، متخذاً من الثراء المعرفي الذي يملكه حجة في ذلك .

٢- الرسالة الجدية اشارة واضحة لبراعة ابن زيدون في علو شأنه الادبي وقدرته الفائقة في الوصول الى غرضه الذي يريد من خلال حسن اختياراته ودقته في ايراد المعاني .

٣- الرسالة الهزلية جاءت وسيلة تعبيرية بحتةً للتنفيس عن الغضب المحتقن ولتدمير الخصم ابتكر ابن زيدون من خلالها اساليب ايقاعية وتصويرية غريبة وعميقة .

٤- يوصي البحث باعتماد المناهج النقدية الحدثية في تحليل النصوص النثرية المشهورة ؛ لقدرتها على الغوص عميقاً في النصوص وبيان خصائصها الاسلوبية ، واشاراتها السيميائية التي تبعثها ، وقدرتها على التأثير في المتلقي ، وامكانية قراءة انساقها المضمرة .

الهوامش :

(١) في الادب الاندلسي ، د. جودت الركابي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ، ط٣ : ١٦٥ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، مصر ، ط١٠ : ٤٣٩ .

(٣) في الادب الاندلسي : د. جودت الركابي : ١٦٦ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لأبن بسام الشتريني ، تحقيق : د. احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧٥ ، ق١ ، مج٢ : ٣٣٧ .

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣٣٨ – ٣٣٩ .

(٦) المصدر نفسه : ٣٣٩

(٧) المصدر نفسه : ٣٣٦

(٨) مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠ : ٤٨٨ .

(٩) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن نباته المصري ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، منشورات المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٨٦ : ١٧ .

(١٠) الاسلوبية التعبيرية : رائد هذه الاسلوبية تشارلز بالي وتلاميذه ، اذ طور تلاميذه هذا الاتجاه بوساطة التوسع في دراسة التعبير الادبي ، لأن التعبير الادبي وسيلة يلجأ اليها منتج النص لجذب انتباه المتلقي ، وقد تخول مفهوم التعبير عند كروزو الى حدث فني والى قيم جمالية ، ان منتج النص لا يفصح عن احساسه او عما يجول في عقله الّا اذا اتيحت له ادوات ملائمة ، ووظيفة الباحث الاسلوبي هي البحث عن هذه الادوات .

يُنظر : النقد الادبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك ، د. ابراهيم محمود خليل ، دار المسيرة ، عمّان، ط١ ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م : ١٥٤ – ١٥٥ .

ويقول كراهام هاف : ((ان دراسة وسائل اللغة التغيرية هي الهدف الرئيس عند بالي)) . الأسلوب والاسلوبية ، كراهام هاف ، ترجمة : كاظم سعد الدين ، دار آفاق عربية ، العراق ، العدد الأول ، ١٩٨٥ : ٣٩ .

(١١) الاسلوبية التكوينية : تقوم على مبدأين : الأول : دراسة نصوص كثيرة من أجل الكشف عن الآليات التي تتحكم في تكوين الاسلوب . الثاني : الافادة من نتائج علم النفس في بيان بعض الظواهر الاسلوبية الفردية لمنتج النص . يُنظر : النقد الادبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك : ١٥٥ .

(١٢) الاسلوبية الوظيفية : يُعرفها ميشيل ريفاتير بانها الاسلوبية التي تدرس عملية الابلاغ بوساطة النصوص ، مع التركيز على الظواهر الاسلوبية التي تساعد على ابراز شخصية فتح النص واسلوبه في جذب انتباه المتلقي .

يُنظر : النقد الادبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك : ١٥٦ .

(١٣) في الادب الاندلسي ، د. جودت الركابي : ١٩٠ .

(١٤) المصدر نفسه : ١٩٠

(١٥) الايقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي ، أدي ولد أدب ، اصدار دائرة الثقافة والاعلام ، حكومة الشارقة ، ٢٠٠٦ : ١٧٦ .

(١٦) مقدمة ابن خلدون : ٨١ .

(١٧) اسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، تعليق:محمد رشيد رضا، ط٤ ، ١٩٤٧: ٧ .

(١٨) في الادب الاندلسي ، د. جودت الركابي : ١٩١ .

(١٩) الرسالة الهزلية لابن زيدون

(٢٠) المصدر نفسه .

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) المصدر نفسه .

(٢٣) المصدر نفسه .

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، د. مصطفى الشكعه : ٥٩٢ .

(٢٧) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية ، بيـــروت : ٢٢ – ٣١ (وكل ما يذكر من الرسالة الجدية يحمل الصفحات نفسها) .

(٢٨) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ : ١٢٧٣ .

(٢٩) الرسالة الجدية .

(٣٠) المصدر نفسه .

(٣١) المصدر نفسه .

(٣٢) المصدر نفسه .

(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) المصدر نفسه .

المصادر

❖ القرآن الكريم

١- الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، د. مصطفى الشكعه .

٢- اسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، تعليق:محمد رشيد رضا، ط٤ ، ١٩٤٧.

٣- الأسلوب والاسلوبية ، كراهام هاف ، ترجمة : كاظم سعد الدين ، دار آفاق عربية ، العراق ، العدد الأول ، ١٩٨٥ .

٤- الايقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي ، أدي ولد أدب ، اصدار دائرة الثقافة والاعلام ، حكومة الشارقة ، ٢٠٠٦ .

٥- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت .

٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لأبن بسام الشتريني ، تحقيق : د. احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧٥ ، ق١ ، مج٢ .

٧- الرسالة الهزلية لابن زيدون .

٨- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن نباته المصري ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، منشورات المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٨٦ .

٩- شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ .

١٠- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، مصر ، ط١٠.

١١- في الادب الاندلسي ، د. جودت الركابي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ، ط٣ .

١٢- مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

١٣- النقد الادبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك ، د. ابراهيم محمود خليل ، دار المسيرة ، عمّان ، ط١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .